صور اوربية سريعة

بقلم عابر سبيل

الشرق مظلوم

البخشيش والبوربوار : الاسم لطوبة والفعل لامشير

كنت قبل سفري الى اوربا اذا سمعت لفظة بخشيش او قرأتها في كتب عربية او افرنجية أشتعل غيظاً ويعروني نفور شديد منها وأتمنى لو محيت هذه اللفظة الثقيلة على طبعي من عالم الوجود لاعتقادي انها وصمة ما برح كتّاب الغرب يصمون شعوب الشرق وبلدانه بها ولا سيما اني كنت أبحث عن هذا البخشيش في بلدان الشرق التي أعرفها فلا أجد له سوى اثر يسير ترجع العلة فيه الى الاوربيين انفسهم

فلما زرت اوربا وتنقلت في بلدانها وعاشرت اقوامها ونزلت في فنادقها وجلست في قهواتها ودخلت متاحفها وسافرت بسكك الحديد والبواخر والسفن والسيارات فيها أدركت ان الشرق مظلوم ظلماً فاحشاً وان هذا البخشيش الذي يعيّروننا به لا يذكر على الاطلاق في جنب البخشيش في بلدانهم . الا ان لفظة البخشيش ثقيلة خشنة في حين ان لفظة البوربوار وهي بمعناه ولكنها أعم منه لفظة خفيفة على اللسان وأخف منها وأقصر اللفظة الانكليزية التي تقابلها (ترب) وربما كان ذلك لان الانكليز أخف ظلاً في مسألة البخشيش من اخوانهم الاوربيين

ان البخشيش في اوربا نظام وطيد الاركان يعنى بتنفيذه أكثر من العناية بتطبيق قوانين نبوليون بل أكثر من العمل بوصايا الله العشر فاذا ذهبت الى اوربا فاعلم انك مضطر الى ان تدفع فوق اجر كل خدمة تسدى اليك عشرة في المئة على الاقل وهذه العشرة لا مفرّ منها الا اذا رضيت ان تستهدف للسخط او للاهانة او للسب او لما هو أفظع

وبعد العشرة الاولى تدفع ما فيه القسمة والنصيب بحسب المكان الذي انت فيه ونوع الخدمة التي يخدمونك وبلغ ما حباك به الله من الحزم او الضعف العصبي فاذا كنت نازلاً في فندق فلا يقل ما تدفعه بعد العشرة الاولى عن خمسة او ستة واذا كان الفندق كبيراً كثير

الخدم هذا يفتح لك الباب وهذا بيمنك على النزول من السيارة وذاك يمسك بكرسيك حين تجلس الى مائدة الطعام وآخر يحييك برفع بريطته وسابع يفتح لك باب المصعد فالعلاوة تبلغ عشرة اخرى. فالاولى تقيد في حسابك وتسدد الى ادارة الفندق والاخرى توزع على من ذكرت من الذين يمنونك على الاعتقاد بأنك مشلول اليدين وارجلين وان الله خلقك ليخدمك سواك حرصاً على مزاجك الشريف

ولم أكن أفهم كل مراد رديارد كبلنغ من قصيدته المشهورة التي نظمها بعد حرب جنوب افريقية في استداء الاكف وهي التي يقول في قرارها « فادفعوا . ادفعوا . ادفعوا » حتى ذهبت الى اوربا ففهمت

كنا في روما وقد اجتمعنا في مكتب كوك في ميدان ازدري وركبنا احدى سيارات كوك الكبيرة للتفرج على اعلام المدينة الخالدة وكان وراثي في السيارة اميركي واميركية وكريمتها والاميركية تشكو من كثرة النفقات والعطايا فضحك الاميركي وقال لها « وماذا تقولين لو كنت في مصر حيث لا يعرف المرء كيف يخلص من طلب البخشيش »

فالتفت اليه وقلت وماذا في مصر فقال لماذا فقلت لأني من مصر وأريد ان أعرف منك شيئاً يظهر اني أجهله فقال اني كنت في مصر اخيراً وانا أقص على هذه السيدة ما عانيت فقلت يخيم من كلامك انك اضطررت الى دفع بخشيش كثير فهل تتفضل بذكر المواضع التي أكرهت على دفع بخشيش فيها وهل دفعت علاوة على الاجرة لسائق تكسي مثلاً

فسكت وأنصت السامعون ثم قال كنت حين أمشي امام فندق الكنتنتال يضايقني باعة السبح ونحوها ويتبعوني فلا أجد خلاصاً منهم الا بالسير الى البوليس الواقف في الشارع وحينئذ كانوا يركضون » . فقلت قد يكون في ما فعلوه قلة ذوق ولكنهم فقراء يطلبون بأن يكسبوا من غير سبيل بطريق شريف . هذا شيء فهل من غيره ؟ فلم يجب

وحينئذ تكلم اميركي آخر وخاطبني قائلا أأنت من مصر فقلت نعم فقال اني وزوجتي — وأشار اليها — زرنا مصر اخيراً في رحلتنا العامة وأقول لك انها من أفضل بلاد الله وان أعظم منظر وقعت عليه اعيننا حتى الآن هو منظر اهرام الجيزة . وكان ذلك ختام تلك المناقشة وقد أوردتها هنا بايجاز لدلالتها على مصدر من مصادر الشر في ما يعزى الى الشرق زوراً وبهتاناً في بلدان رفعت فيها اعلام البخشيش ونشرت رايات البورباز وخفقت بنود التيپ »

وأقول هنا اضافةً للانكليز اني وجدت البخشيش في بلادهم أقل منه في بلدان القارة الاوربية ولا أنسى ما اتفق لي من هذا القبيل مع خادم مصعد في متحف فكتوريا والبرت في ساوث كنجستن بلندن فقد ذهبت ذات يوم الى ذلك المتحف لأتفرج على

ما فيه من مجموعات الخزف الشرقي والقاشاني ورودس وهي مجموعات يندر ان يكون لها نظير في الحسن والكثرة وقيل لي في ادارة المتحف ان المجموعات في الدور الاول ودلوني على مصعد أصعد به اليه فدخلت المصعد ورأيت فيه رجلاً شاب شعره وتمت ملامحهُ وشارباه على انه جندي سابق لحياني وأشار بتلبية طلبي فمددت يدي الى جيبي أريد ان أعطيه شيئاً وأدرك مرادي فقال لي بصوت جهوري « لا يدفع شيء من المال هنا يا سيدي » ولما خرجت من المصعد حياني فأعجبت به وبما ظهر من عزة نفسه فقلت له بالعربية « اين زملاؤك في انحاء هذه القارة يسمونك » وأسفت حقاً على ان شعوباً عظيمة لها هذا المقام الرفيع في الحضارة والعز والمجد والتاريخ الحافل بجلائل الاعمال تصر على تفشي هذا الداء فيها مع ان افرادها يتوقون به ويتبرمون من ارهاقه لهم ويتمنون الخلاص منهُ ما عدا المنتفعين به فان كثيرين من خدم الفنهوات والمطاعم لا يتقاضون من اصحابها اجراً بل يعتمدون في معيشتهم وثروتهم على ما ينفحهم به الزبائن بخشيشاً . وفي بعض المواضع يدفع الخادم الى صاحبه المحل جانباً من هذا البخشيش ليسمح له بالخدمة عنده وحتى الريح الطائل من نظام ثقيل ومع ذلك فالبخشيش مقترن باسم الشرق . ولا غرو فالاسم لطوبة والفعل لامشير

على هوود البلدان الاوربية

يقول رجال السياسة والعارفون بطبائع الامم ان هذه المؤتمرات والمعاهدات التي تعقدها الدول الاوربية لازمة لصون السلام لان الشعوب لم تنزع كل ما كان في صدورها من غلّ وحقد ولان التسلح فيها اليوم أعظم مما كان قبل الحرب الاخيرة . وأهم من ذلك كله ان الريب أشد والثقة أضعف

هذه حقائق لا يسع الغريب ان يتحققها كلها بنفسه ولكن هنالك مظاهر تعرض له تكاد توصله الى الاستنتاج عينه ومنها التدقيق في أمر جوازات السفر وشدة العناية بها عند الحدود

تى من هذا الحكم سويسرا . فالمصري يستطيع ان يدخلها من دون تأشير من سفيره العادي اما في انكلترا فيدققون كثيراً مع الاجانب ويقضي زمان من كايه الى دوفر في فحص جوازات الاجانب عن بريطانيا واستجوابهم ويطبع على الجوازات ما يفيد انهُ لا يسمح لهم بالاستخدام فيها د الناس عن المنطق فهم لا يسمحون لاجنبي بدخول بلادهم ابناءها وبناتها على الخدمة والعمل ولكنهم يسمحون لهذا او بضائع في بلاد اخرى ويرسلها الى بريطانيا فتدخلها

معفاة من الرسوم الجمركية وتزاحم مصنوعات ابناء البلاد ومع ذلك فهم لا يزالون يشددون على الاجانب الداخلين الى بلادهم كما تقدم وحكومتهم تجاهر بعزمها على الغاء الرسوم الجمركية المفروضة على بعض المصنوعات كالسيارات والحرير الطبيعي والصناعي الخ مما يعرف برسوم مكنا . وقد حادثت بعض الانكليز في ذلك فكانوا يهزون اكتافهم حائرين في امر الجواب وتعليل هذا التناقض

ولكن أكثر البلدان التي زرتها عناية بأمر جوازات السفر ايطاليا فاذا شاء المسافر ان يقيم فيها أكثر من ثلاثة ايام وجب ان يأخذ ترخيصاً من ادارة البوليس واذا ذهب اجنبي وحده الى متحف مثلاً وجب ان يبرز جواز السفر قبل ان يسمح له بزيارة المتحف

ومما يدل على الروح السائد في بعض البلدان ما اتفق لي بعد دخول بلاد تشكوسلوفاكيا وكنت ذاهباً اليها من درسدن عاصمة سكسونيا فطلب مني الكومساري في القطار التذكرة وكنت أظن اني أعطيت الكوبون كله للمستخدم آخر قبل ذلك فطلب المستخدم التشكوسلوفاكي مني ان أبرز دفتري ففعلت ووجد فيه التذكرة المطلوبة وقال لي هذه تشكوسلوفاكيا اما تلك التي غادرتها فجرمانيا قال . « جرمانيا » بنغمة ازدراء ولهجة من يتكلم عن قرية من قرى قلب افريقية

الاسماء في باريس وفي لندن

باريس ولندن عاصمتا العالم القديم الكبريان ولكل منها تاريخ عظيم وفي كل منهما ما لا يحصى من الاعلام والمشاهد التي يعرفها عشرات من ملايين الخلق ويعلم اسماءها مئات من ملايين البشر

ولكن الفروق بين العاصمتين مما ليس مقتبساً او مستعاراً من غيرهما كالصور الايطالية والتحف اليونانية كبير يضارع الفروق في طبائع الامتين والحضارتين وليس من غرضي التوسع في هذا البحث فحسبي منه ما اتفق لي مع دليل الرحلة في لندن وفيه دلالة على شدة تمسك الانكليز بالقديم

ركبنا سيارة كوك الكبيرة وأخذت تطوف بنا شوارع لندن وميادينها والدليل يسرد أسماء ما تقع عليه العين من الاعلام والمشاهد ويصف ما يهم منها واجتزنا مكاناً في القسم الغربي قال لنا ان اسمه هايد ماركيت اي سوق القش وفيه تياترو لهم مشهور وكان بجانبي سياح أميركيون ففتحكت وضحكوا ثم مررنا بجانب روض هيد (هيد بارك) المشهور وهو من مفاخر لندن وقائم في وسط الاحياء خلافاً لغابة بولون في باريس فدلنا الدليل على

طريق جميل قال لنا ان اسمه روتن رو (اي الصف العفن أو الفاسد) وهذا الطريق متنزه راكبي الحياد من اعيان الانكليز وكرائم سيداتهم من العقائل والاوانس وهو من أشهر متنزهات العالم فضحك وضحك الاميركيون وقلت للدليل انتم معاشر الانكليز غريبون في عاداتكم وتقاليدكم فهنا روتن رو وهناك سوق القش وقبله حارة الخبز وحارة اللبن ألا تعلمون من الفرنسويين كيف يتفننون في ابتكار الاسماء لشوارعهم وميادينهم وعندهم في باريس البلاس دي لا كنكورد والشانزليزه والتروكادير والاتوال وفرسايل والتريانون وملميزون وكلها الفاظ عذبة تستحسن الآذان سماعها بدلاً من سوق القش والروتن رو هذا . فوجم الدليل ثم قال لي انك ياسيدي غريب عنا تجهل اخلاقنا وطبائعنا فلا تغير أسماً من هذه الاسماء ما دامت لندن في هذا الوجود

ثم أخذ يشرح لنا سبب تسمية هذا الطريق ويعللها ويقول ان الاسم الحالي محرّف عن اسم قديم جميل الخ

ومما روي لي في لندن عن طريق روتن رو هذا ان سير المركبات محظور فيه بتاتاً ولكن اللورد تشارلس بيرسفورد من أمراء البحر الانكليز المشهورين راعن جماعة من أصدقائه على انه يسير بمركبة فيه وكسب الرهان وذلك انه رشا (بخشيش !) سائق مركبة الرش وجلس في مكانه وساق المركبة على طول ذلك الطريق

بيني أفخم من هذا

وللاميركيين موازنات لطيفة في سياحتهم الاوربية فاتفق أن مررنا بالسيارة امام قصر سنت جمس بلندن ومنظره من الخارج بسيط جداً ككثير من قصور اوربا وقد أسودّ طوبه بفعل دخان المصانع والبيوت وهذا السواد هو اللون الغالب لمباني لندن وباريس وسواها من مدن الشمال الباردة

قال الدليل وهذا قصر سنت جمس ثم أشار الى جزء منه وقال وهنا يقيم البرنس اوف ويلس الى ان يفرغوا من اعداد قصره المعروف بمرلبرو هوس

فقالت سيدة اميركية من الجماعة اتعني ان هذا مسكن النجل الاكبر للملك فقال نعم ياسيدتي . فقالت أتريد أن تقول ان ذلك الامير الظريف يقيم هنا فاجابها بالايجاب

فالتفتت السيدة الينا وقالت ان بيتي في الولايات (المتحدة) ليس من البيوت الفخمة المعدودة ولكنه على كل حال أفخم من هذا

خليل ثابت